مظاهر الاغتراب والحنين في شعر المدينة

(قصيدة الجليل لتميم البرغوثي أنموذجا)

Manifestations of alienation and nostalgia in City Poetry(Galilee poem of Tamim Barghouti model)

بلقاسم أوراغ *

د محمد الصديق معوش♣

تاريخ الإرسال: 2021/04/05	تاريخ القبول: 19 / 04 / 2021	تاريخ النشر: 30 / 06 / 2021

الملخص:

لقد امتزج ذكر المدينة في الشعر العربي المعاصر بما يعيشه الشاعر العربي من صور الفقد والضياع التي عبرّ من خلالها عن علاقته ومدى ارتباطه بالمدينة، فكانت موضوعا استحق أن تخصص له قصائد كاملة، ويسعى هذا المقال بالشرح والتحليل إلى مساءلة وتحديد أهم مظاهر الاغتراب والحنين لتيمة المدينة في الشعر العربي المعاصر وتحديدا في أشعار تميم البرغوثي كونه أحد الشعراء الذين ارتبطوا بمدنهم واتخذوا منها موقفا يتأرجح بين القبول والرفض.

الكلمات المفتاحية: اغتراب، حنين، مدينة، قبول، رفض.

المؤلف المرسل: بلقاسم أوراغ belkacemaouragh@gmail.com

*جامعة حمة لخضر الوادي belkacemaouragh@gmail.com

♣جامعة حمة لخضر الوادي mmmseddike@gmail.com

Abstract:

The mention of the city in contemporary Arab poetry was mixed with the loss and loss of the Arab poem .the Arab poet also expressed his relationship and the extent of his association with the city. it was a subject that deserved to be devoted to him complete poems. this article seeks in the dimension we want to hold accountable to identify the most important manifestations of alienation and nostalgia from the city in contemporary. Tamim Barghouti is one of the poets who have been associated with their cities and have taken a position that swings between acceptance and rejection.

***Key words**. Alienation, nostalgia, city, acceptance, rejection.*

*** *** ***

مقدمة:

تجلّى حضور المدينة منذ وجود الحضارة قصائد الشعراء، فكانت المادة المستلهمة لهم في نسج قصائدهم، والتعبير عن مختلف العلاقات بين الشاعر ومدينته، فكانت المدينة موضوعا استحق أن تخصص له قصائد كاملة لما لها من قيم اجتماعية ونفسية، وسياسية بالأخص، خاصة في ظل الظروف التي عاشها الشاعر "**تميم البرغوثي**" منذ الاحتلال الصهيوني لفلسطين بشكل خاص، وما يحدث في الأوطان العربية بشكل عام، لهذا نجد الشاعر في جلّ تغريداته يناجي مدنه ويحاكي ما يعانيه من مظاهر الظلم والتعسّف والاستدمار والفقد والضياع، حيث ارتبط ذكر المدينة بالدعوة إلى هجرها والتخلص من كل القيود التي تحيطه بها، إلا أن الشاعر هنا وجد في هذه المدينة الطفولة والمنشأ والذكرى الجميلة، فانعكس هذا الشعور على قصائده، وقصيدة " الجليل " خير مثال على ذلك، فالفقد والضياع الذي الم بالشاعر جعله يستعرض صورا لمدينته تجعل من المتلقي يعيش مرارة فقد الشاعر، وتثير شعور الحنين الذي يحسه الشاعر، ومن هنا يتبادر إلى أذهاننا هذا التساؤل: كيف تجسدت مظاهر الاغتراب و الحنين في شعر المدينة، وكيف أظهر الشاعر ملامح الاغتراب والحنين في قصيدة الجليل ؟.

2.موقف الشاعر من المدينة:

إن المدينة عبارة عن تجمع سكاني عكس ما هو موجود في البادية والريف، فهي مسكن الإنسان الطبيعي، وقد وردت في القرآن الكريم أكثر من مرة من حيث أن لفظة المدينة في القرآن الكريم ترد كمرادف للفظة القرية وهي مركز السلطة ومستقر الحكام، فقد كانت مركزا للتجارة يتم فيها البيع والشراء.

يقول عز وجل: {وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا} الكهف-الآية:[19].

ويرى ابن خلدون في قوله: " الإنسان مدني بالطبع أي لابد من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو معنى العمران"[1]، فطبيعة الإنسان تحتم عليه العيش في جماعات، ومن هنا تشكلت القرى والمدن.

إن الوقوف على علاقة الشاعر بالمدينة كان شيئا لازما وسببا رئيسا في اغتراب الشاعر، لما فرضته هذه المدينة من صراع في حياة شاعر في هذا العصر، وما خلفته من نكبات نفسية وتعقدات اجتماعية وسياسية متباينة، وقد كانت المدينة بحق موطن الاغتراب وما تزال كذلك.

والمدينة فضاء مفتوح على كل الاحتمالات أنى يجد الإنسان فيها نفسه رقما لا غير، هنا تنهدم العلاقات الاجتماعية وتنصهر القيم الروحية في بوتقة العدم و الانهيار، حيث يعاني الفرد الوحدة والغربة، وكذلك تعزف المدينة على الأوتار العاطفية فتمتزج بروحه فلا يستطيع الهروب من الدوامة التي أوقعته فيها، فترى الشاعر يهيم بمدينته هنا وهناك يستطلع ذكرياته فيها.

1.2 موقف القبول والإعجاب:

لم يكتم الشاعر حبه للمدينة ومدى تعلقه بها، وكيف لها أن أصبحت ينبوع إلهامه، وكان ذلك باديا وواضحا من خلال عنوان القصيدة والموسوم ب: "الجليل "، فالعنوان يلخص مدى ارتباط الشاعر بمدينته، إلى درجة أنه يعتبر اسم مدينته كوسام تتشرف وتتزين بها قصيدته، فاسم المدينة غني عن التعريف يكفي للقارئ أن يقرأ العنوان ليقع في طعم الإعجاب والرغبة لتلقي المزيد.

و يفتتح الشاعر قصيدته بسلام لأجمل القرى والحواضر وهذا في قوله[2]:

سلام على زين القرى والحواضر ومن هاجروا منها ومن لم يهاجر

ثم ينتقل الشاعر إلى وصف مدينته وتشبيه مروجها بالضفائر في قوله[3]:

يمر بنا اسم المرج مرج ابن عامر فنطرب لاسم المرج، مرج ابن عامر

ونشرد حتى نحسب المرج قصة من القصص المحكي فوق المنابر

ونحسبه أرضا بعيدا منالها تضيق بها ذرعا عين المسافر

ولو طفلة من عندنا مس شعرها نسيم لمس المرج ظل الضفائر

وصف تميم المدينة وكأنها المرأة الفاتنة التي تستولي على قلوب الرجال وذلك من خلال محاسنها، وكأنها أسطورة يونانية أو آلهة إغريقية تستطيع السيطرة على الكل من خلال تموجات شعرها، حيث شبه تموج المرج بتموج شعر طفلة عندما تتعرض ضفائرها لنسمات الريح، حتى عين الزائر تصاب بالدهشة لشدة جمال المدينة.

ويقول أيضا[4] :

ويحسبه الناس جغرافيا

وهو أرض شمال فلسطين

أعني شمال جنين تماما

جنوبي لبنان رأسا

جنوبي غرب دمشق مباشرة

وسط الشام كالطفل في المهد،

أو كالهوى في قلوب الكرام

أعطى الشاعر صورة بيانية جديدة؛ حيث جعل من المدينة إنسان يسلم عليه ويخاطبه، ويؤكد للناس أنه ليس مكانا فقط، وإنما هو القلب النابض والخافق للمدن والقرى المجاورة، والدليل على ذلك أنه ركز على الموقع الاستراتيجي الذي تحتله المدينة، والتنوع المناخي الموجود فيها.

ويقول أيضا[5] :

جليل هو النص ينذر أعدائنا بالزوال، وسوء الوجوه، ويعلمنا أننا

سنجوس خلال الديار،

هو الوشم في اليد يحبط كل محاولة للتناسي، والكواجب الأبدي اللحوح

يطالبنا بالأمل

وجليل هو الصوت يمتد بالردة الجبلية، فصحى، تشكلها الريح دارجة

فتزيد فصاحتها

وتحملها برذاذ خفيف ورعد خفي

جليل لعمري، مقالي: " لعمري "، وتشديدي " الياء " في لفظة "العربي"

وجليل هو الولد الناصري الذي يرتقي كل يوم صليبا

فيحمله، لا أحدد من منهما يحمل الآن صاحبه،

ويسير إلى القدس مستشهدا حافيا

ويحسبه الناس جغرافيا

و يؤكد الشاعر مرة أخرى شدة تعلقه بمدينته فيصفها بالنص الذي سيزيل أعدائها و يمحهم من الوجود، وأنه سيعود إليها مهما طال الغياب، فهي في ذاكرته كخطوط يديه، وأن الرجوع إليها واجب وفرض وجوب، فهي الصدى الذي يناديه وهي الشعلة وفتيل الحرية في قلوب أبنائها.

و لقد تعددت المواضع التي عبر فيها الشاعر عن شدة تعلقه بمدينة الجليل، إن لم نقل أن جل مقاطع القصيدة تعبر عن علاقة الشاعر بمدينته، دون أن ينسى أدق تفاصيلها من طبيعة وشوارع وأماكن تاريخية...، وهذا ما هو إلا دليل على موقف استحسان من الشاعر لمدينة الجليل.

2.2 موقف النفور والرفض:

إن الإنسان العربي يحس الضجيج والقلق عند ولوجه لأول مرة إلى المدينة، ويشعر بالخوف والحيرة من مختلف الوسائل الجديدة، التي لم يألف وجودها في منشأه، كما أنه يعاني من الدهشة من معالم المدينة وبالتناقض بين المجتمعين (المدني والقروي) وهذا الموقف يعبر عن عدم الألفة[6].

إلا أن شاعرنا لا يعاني من الضجيج أو الوسائل المستخدمة في المدينة، وإنما الشاعر يعاني التغيير الذي طرأ على المدينة إثر دخول الغزاة لها، فغيروا من معالمها وشردوا أهلها ويتموا أبنائها، ولهذا نجد الشاعر لم يستسلم لهذا التغيير وإنما عبر عن رفضه القاطع لما يحدث وفي هذا الصدد يقول[7]:

ونسمع عن بعد، فطوبى لسامع على البعد محروم وليس بناظر
وننظر عن بعد، فطوبى لناظر على البعد محروم وليس بزائر
وإن زار يوما حال دون مبيته بمنزله جيش كثير العساكر
إذا حاصرت جسم الجليل غزاته فإن اسمه قد رد كيد المحاصر

هذا التغيير الذي عبر عنه الشاعر وكان السبب في إبعاده، فنراه يشكو دخول الغزاة الذين غيروا وجه المدينة وهجروه منها، فأصبح يشتاق رؤيتها ويسمع أخبارها، ويعود إلى التعبير عن رفضه للتغييرات التي أحدثها الغزاة في المدينة حيث يقول[8]:

ويبنون دون الجليل جدارا
علا فاطمأنوا وظنوا بأن الهواء على جانبيه انفصل

ولكن يمر الجليل من الجسم للجسم، مثل الحرارة

عند العناق، وينظم كل المشاهد نظما

كما يشير الشاعر إلى إحدى التغيرات التي أجراها الغزاة على المدينة وهذا ببناء جدار يحمون به المدينة من أهلها الأصليين، ويمنعونهم من دخولها، وكأن بالشاعر يشكو من عزله عن مدينته التي لا تزال تعيش في قلبه ووجدانه.

3.مظاهر الاغتراب:

إن من بين الموضوعات والقضايا التي اشتغل عليها الشعر العربي قضية الاغتراب، والتي حدثت نتيجة لتلك التغيرات التي أصابت الحياة العربية، و الاستيطان اليهودي للمدن الفلسطينية، حيث "يشير الاغتراب إلى حالة تحول الكائن إلى خارج ذاته، وقد استخدمت كلمة الاغتراب في العلاقات الإنسانية لتدل على الإحساس الذاتي بالغربة أو بالانسلاخ (detachement) سواء عن الذات أو عن الآخرين"[9].

ويختلف الشعور بالغربة من إنسان إلى آخر، ومن مجتمع لآخر، حتى الاغتراب في حد ذاته يختلف مفهومه من شخص لآخر، حيث أصبح هذا المفهوم يشكل جدلا كبيرا لدى الدارسين له، ولهذا تعددت مفاهيمه واختلفت زوايا رؤاه.

1.3الاغتراب الذاتي:

يعتبر أحد أنواع الاغتراب الذي يتملك الإنسان، لأنه عندما يحقق معيار الذاتية الخاصة به، يتملكه اليأس وعدم الرضا ليعيش معترفا من ناحية قبول الحياة بشكلها المطروح وهذا ما حدث مع الشاعر، إذ نجده يكشف في نصوصه عن ذات معذبة ومتألمة، ومن هنا يتشكل لنا صورة للاغتراب في أسما أشكالها البعيدة في البكاء[10].

ونجد الشاعر في هذا الموضع يقول[11]:

كأن الجليل عروض من الشعر ينظم فوضى الحياة التي في الطرق

كأن الجليل هو الشعر في النثر محتجب، كالخيول التي في السما

كالملائكة النازلين على هيئة الطير يوم القتال

هو محتجب مثل رعب العدو الحقيقي،

ذلك الذي، للأمانة، لست ألوم العدو عليه، إذا ما رأى في الأفق

طائرات الورق

لإدراكه أن كل الخيوط تؤدي

لأيد وأيد وأيدي

أن الطفولة في الحرب فعل تحدي

وأن تحدي الوحوش يعلمها أنها من نسيج الخيال

هنا الشاعر تميم يرصد لنا همه ألا وهو اغترابه عن مدينته، ومن خلال هذه الأبيات يعبر الشاعر عن غموض مدينته، فالجليل بالنسبة له هي التي تنظم الفوضى كالشعر، وغامضة كالنظم في النثر، فلا يفهم الطريقة التي تعيش بها مدينته.

2.3اغتراب الهجرة:

نتيجة الفقر والبؤس، ونتيجة الأوضاع الاجتماعية والسياسية...، والتي تعد من أكبر الدوافع التي تدفع بالمواطن للهجرة، وكذا الذل والظلم وانقسام الأمة الواحدة وتفشي الاضطرابات في أوساط أفراد المجتمع، دفعت المواطن إلى الهجرة والبحث عن الأمن في أماكن أخرى[12]، كما تتغنى القصيدة بالكثير من الاضطرابات السياسية التي عان منها الشاعر، وفي هذا يقول[13]:

وننظر عن بعد، فطوبى لناظر على البعد محروم وليس بزائر
وإن زار يوما حال دون مبيته بمنزله جيش كثير العساكر

ويقول أيضا[14]:

ويبنون دون الجليل جدارا،

علا فاطمأنوا وظنوا بأن الهواء على جانبيه انفصل

ولكن يمر الجليل من الجسم للجسم، مثل الحرارة

عند العناق، وينظم كل المشاهد نظما

يحكي الشاعر في البيتين الأولين عن سياسة الاستيطان والتهجير التي أعتمدها الغزاة في الاستيلاء على المدن والقرى، حتى المنازل أصبحت محروسة من طرف العساكر، فأصبح السكان يحلمون برؤية بيوتهم، وإن رأوها حال دون المبيت فيها، كما عزلت مدينتهم بجدار يمنعهم من دخولها، إلا أن شاعرنا لا يزال يحمل نزعة تفاؤلية تبقيه على أمل ولقاء جديد بينه وبين مدينته.

4.أشكال الحنين:

يعتبر الحنين أحد أشكال المشاعر التي تخالج الإنسان، حيث يرتبط في جوهره بجغرافيا المكان، ويصبح هذا المكان كجزء لا يتجزأ منه، لأن" الحنين بكل طاقاته يعني الأمل والفرح، لأنه يجسد لنا الفرحة التي يعيشها الشاعر، فإذا كانت الغربة تعني البعد، فإن الحنين يعني القرب، وهو الشعور الطاغي الذي يحيل إلى الوطن"[15].

1.4 الحنين إلى المدينة:

يعدّ ارتباط الشاعر بمدينته كما أسلفنا سابقا ارتباطا وثيقا، لهذا لا تكون المدينة مكان للذكريات الماضية فحسب، وإنما تتجسد بكيان الشاعر فتصبح جزءا منه، ولهذا نجد شاعرنا يتغنى بحبه لمدينة الخليل من عنوان القصيدة إلى غاية نهايتها، ومن أهم ما جادت به قريحته قوله[16]:

سلام على زين القرى والحواضر ومن هاجر منها ومن لم يهاجر
يمر بنا اسم المرج مرج ابن عامر فنطرب لاسم المرج، مرج ابن عامر
ونشرد حتى نحسب المرج قصة من القصص المحكي فوق المنابر
ونحسبه أرضا بعيد منالها تضيق بها ذرعا جمال المسافر

لقد سيطرت عاطفة الحنين على الشاعر منذ بداية القصيدة، فنجده يرسل لها سلاما وكأن بالمدينة ستجيبه وترد التحية، ثم ينتقل إلى التغزل بمروج المدينة، ويستظهر تاريخها العريق والمليء والذي يستحق الإصغاء والتركيز كخطب المنابر.

ويقول أيضا[17]:

إن الجليل له ألف معنى
ومعنى فلسطين أجمعها في الجليل

هو الأرض تحسب خالية فتفاجئ بشعاب تسيل

وإني أراه وربك في المشهد المتكرر في كل يوم

بزاوية في المنارة أو شارع في الخليل

تعود عاطفة الحنين مرة أخرى لتخالج عواطف الشاعر الذي بقي هائما بمدينته، والتي أصبحت بالنسبة له معنى فلسطين، فهي أرض المقاومة والاستشهاد، فكل ركن منها وكل زاوية توحي بمقاومة كالسيل المفاجئ، وتبقى الجليل صاحبة الألف معنى في نظر الشاعر، فهي الحنين والوطن، وهي الذكرى في كل صباح، وهي أرض البطولة في كل شبر وكل ركن.

2.4الحنين إلى الماضي:

إن العودة إلى الماضي له نكهة خاصة عند الإنسان، لاسيما ذلك الذي أثقلت أحزان الواقع كاهله، وأخذت مرارة الواقع أحلامه، فالماضي وفق هذا التصور هو المرفأ الذي ينهل الشاعر منه ذكرياته الجميلة هروبا من آلام وأحزان هذا الواقع، والتماسا للراحة و إن كانت حلما وخيالا[18].

إن اغتراب الشاعر الروحي عن مدينته وما أجراه الغزاة من تغيرات على المدينة، دفعت بالشاعر إلى الحنين إلى أمجاد الماضي، واستلهام التراث وبطولاته، هربا من الواقع الذي يقيد حاضره، وكأن بالشاعر يريد تحقيق توازن داخلي في نفسه بين حاضر مكتنز بالمآسي وماض حافل بالمآثر، فنجده يقول[19]:

وفي وسط الشام تاريخنا

مثل سجادة من حرير تريث فيها شيوخ الصناعة

ويربطها البائعون بخيط رخيص

وتاريخنا فسحة الشمس في السجن

أو نجمة وقعت، أو براق فنيص

وتاريخنا عرق في يد أو دم في قميص

وتاريخنا ألف عام تحاصرها نصف ساعة

نلاحظ بأن الشاعر يستدعي تلك الملاحم التاريخية، والتي يستعين بها الشاعر في كبت اغترابه ومواجهته، فرغم كيد الكائدين وفعلهم الشنيع؛ إلا أن الجليل تبقى بتاريخها فسحة الضوء التي تحرق الظلام، والشهاب الذي يخط السماء، وتاريخها أعتق وأقدم من أن يحاصر بنصف ساعة.

ويعود الشاعر إلى الاحتفاء بتاريخ مدينته العتيق فيقول[20]:

ورب سيوف معلقة في بيوت الجليل

علاها غبار التقاعد بعد غبار الخيول

فأمست شيوخا يقصون سيرتهم في الهوى و الجهاد

يعيدونها فتطمئننا لقطة في الشريط المعاد

يستعرض الشاعر مرة أخرى الشواهد التي لا تزال باقية من المعارك التاريخية، والمعلقة على جدران بيوت الخليل دون استثناء، فالسيوف الباقية ما هي إلا دلالة على المقاومة التي لازالت قائمة منذ تاريخي المدينة العتيق.

خاتمة:

إن مفهوم الاغتراب لا يقف عند البعد والحنين إلى المدينة فقط و إنما يتعدى إلى مظاهر أخرى لا تتجلى لهذه الدراسة، بحيث يتطور إلى انفصال الذات عن المجتمع وعن الأفراد لتكون المأساة أكبر، فالاغتراب الذي ميز الشاعر تميم البرغوثي هو اغتراب روحي و سياسي، فما يعيشه الشاعر من اغتراب داخل أو خارج وطنه، تجسد في جل قصائده، وقصيدة الجليل هي أحد الصور الشعرية التي نقلت لنا حالة الاغتراب والحنين التي يعيشها الشاعر، فتظهر ملامح الاغتراب حينا وعاطفة الحنين في حين آخر، فامتزجت مشاعر الشاعر بينهما مجسدة بذلك هذا النموذج الرائع من الشعر، فحب الشاعر لمدينته يجري مجرى الدم في شرايينه، وهذا ما نلمسه في قصيدته التي خلدت الجليل وافتراقه عنها، مما ولد معاناة كبيرة لدى الشاعر.

6. الهوامش:

1- عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط9، 2006، ص27 .

2- تميم البرغوثي، ديوان في القدس، الكتابة والنشر ياسر علوان، (د،ط)،(د،ب)، 2012، ص13.

3- المصدر نفسه، ص 13.

4- المصدر نفسه ، ص 13.

5- المصدر نفسه، ص 17.

6- ينظر: زهير محمود عبيدات، صورة المدينة في الشعر العربي الحديث، دار الكندي، عمان، (د.ط)، 2006، ص:119.

7- تميم البرغوثي، ديوان في القدس، مرجع سابق، ص13.

8- المصدر نفسه، ص 13.

9- يحي الجبوري، الحنين والغربة-الحنين إلى الأوطان، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان،الأردن، ط1،2001،ص16.

10- ينظر: فاطمة الطيب قزيمة، الاغتراب في شعر محمد الشلطامي، قسم اللغة العربية،جامعة الزاوية، العدد17،أغسطس2015، مج2،ص28-29.

11- تميم البرغوثي، ديوان في القدس، مرجع سابق، ص18.

12- ينظر: سميرة سلامي، الاغتراب في الشعر العباسي -القرن الرابع الهجري، دار الينابيع، دمشق، ط1، 2000، ص123.

13- تميم البرغوثي: ديوان في القدس، مرجع سابق، ص13.

14- المصدر نفسه، ص16.

15- عمر بوقرورة، الغربة والحنين إلى الوطن في الشعر الجزائري الحديث(1945-1962)،منشورات جامعة باتنة، (د،ط)، (د،س)،ص13.

16- تميم البرغوثي، ديوان في القدس، مرجع سابق، ص13.

17- المصدر نفسه،ص16.

18- ينظر: بلاطة عيسى، بدر شاكر السياب (حياته وشعره)، دار النهار للنشر، بيروت، (دط)، 1971،ص63.

19- تميم البرغوثي، ديوان في القدس، مرجع سابق، ص15.

20- المصدر نفسه، ص15.

*** *** ***